مجمع البحور وملتقى الأوزان

للدكتور محمد عوض محمد

يعسن بنا . كلما دخل الأدب العربي طور جديد . أوظهرت فيه بدعة جديدة . أن نقف لحظة لنحقق أمر هذا الطور الجديد . وهذا المنهج الذي يريد بعض الأدباء أن ينتهجه . وينبغي أن الكائن الحي يجب أن يكون في تبدل أبدا وفي تحول . لكن يجمل بنا من آن لآن أن نقف قليلا لنحلل هذه الاتجاهات الجديدة . لكي نكون على بصيرة من أمرنا ، ولكي نمشي على علم وهدى . فان بعض السبل الجديدة يؤدي الى الخير . وبعضها لا يفضي إلى شيء .

وقد ظهر في عصرنا هذا ضرب جديد من الشعر . لم يعرفه الأوائل ولا الأواخر . ولا نعرف في شعراء الشرق من عرب وترك وفرس من نحا هذا النحو . ولا في شعراء الغرب في الأدب الأنكليزي والفرنسي والألماني . من له شأن وخطر . من سلك هذا السبيل . وإن كان بين قراء (الرسالة) من يعرف شاعرا ذا شأن طرق هذا الباب من قبل . فقد يسرنا أن نعلم عنه ما جهلناه .

أما هذا الضرب من القريض — وقد سميناه بمجمع البحور — فانه يسوغ للشاعر في المنظومة الواحدة والموضوع الواحد . أن يجمع بين ماشاء من بحور الشعر . بلا قيد ولا شرط : فينتقل كما شاء وشاء له الهوى من وزن إلى وزن بلا سبب ظاهر . وبدون أية قاعدة معهودة أو غير معهودة . فيبدأ منظومة بالخفيف مثلا . ويمضي فيه الى بيتين أو الى أبيات . ثم يخرج على البسيط فينظم فيه أيضا بيتين أو ثلاثة . ثم يميل فجأة الى الرمل ثم الى الكامل . وهكذا لا يزال ينتقل من بحر الى بحر . ويثب من وزن الى وزن . والمنظومة واحدة والموضوع واحد .

ليس من شك في أن هذا الضرب من الشعر جديد . ولو أن المتنبي . وهو الآمر الناهي في مملكة القريض . قيل له إن فلانا ينظم القصيدة الواحدة فيجعلها من بحور شتى . لقال لمحدثه : « ياهذا إن شاعرك مثله كمثل الطاهي الذي يخلط الحلو بالحامض . والمانع بالجامد . والرطب باليابس . والصاب بالشهد : ثم يرجو بعد هذا أن يكون فيما طباه شفاء وغذاء . »

مفهوم أن يكره الانسان التقيد بالقيود من أي نوع كانت . والنفس تثور من آن لآن . تحاول تحطيم السلاسل التي تقيدها وتمنعها من ارتياد منهل الحرية عذبا نميرا . وقد رأينا منذ زمن كيف ابتدع بعض الشعراء نظم القريض مرسلا . من غير قافية ثابتة : لكن مع الاحتفاظ بالوزن . وكان لهذا الضرب من القريض أنصاره . الذين ماذوا في الناس بأنه سيرقى بالشعر العربي الى سماء ما طاولتها سماء . ثم لم تلبث تلك النار أن باخت . وتلك الأصوات أن خفتت . وأصبحنا اليوم وأكثر الأدباء متفق على أن إرسال القافية لا يلائم الشعر العربي : فلم نكد نسم بتلك الحرية حتى عدنا بأنفسنا طائعين إلى حمل السلاسل والأغلال . مضحين بتلك الحرية المعروضة التي لم تنتج لنا إلا كل فاتر تمجه النفس .

ثم جاء بعد هذا بدعة أكبر وأخطر . وهي بدعة (مجمع البحور) التي وصفناها . ومما يؤسف له أن يكون شاعر من أجل الشعراء شأنا وهو « شوقي » على مابه من قدرة ومكانة . وهو الشاعر ذو النفس الطويل . الذي ما كان يعييه أن ينظم فيطيل ماشاء الأطالة . وهو الذي نظم (صدى الحرب) و (مقدونيا) و (نهج البردة) . انه برغم هذا رأى ألا يلتزم وزنا واحدا في رواياته التي كتبها أخيرا . فأحيانا كان شخص من أشخاص الرواية يسأل السؤال في وزن . فيرد عليه بوزن آخر . وكثيرا ما ينتقل المتكلم الى وزن جديد . وموضوع الحديث لم يتغير .

لقد قيل ان شوقي في ذلك أسوة بكبار الشعراء الروائيين أو القصصيين . . وهذا ليس بصحيح . فان جميع روايات شكسبير من وزن واحد وهو المسمى Iambic Pentameter وملحمتا هوميروس كلتاهما من بحر واحد . والفردوس الضائع لملتون كلها من وزن واحد . والشاهنامه والمثنوي كلها ذات وزن واحد . وبرغم ما قيل وما يقال عن روايات شوقي . فان كثيرا من الناس يقر بأن هذا الاكثار من الأوزان قد أفقدها قسطا كبيرا من الحسن .

ونحن نسوق هنا على سبيل المثال قطعة من (قمبيز) وهي الرواية التي تفوق صواحبها في هذا الأمر .

جاء في المنظر الأول من الفصل الأول الحوار الآتي بين تاتس وعمها فرعون (أمازس) :

تاتس : تغريت يأبي المسير هبالي ... مكانها منك يا أمازس

فرعون : أنت التي تذهبين

تاتس : ثم لا ؟

فرعون : هذا هو النذل يا تاتس(١)

بخ بخ بنت أخي (٢)

تاتس (في استنكار) : أنت يا قاتل عمي

لا . . أبي يأبى وأمي (٣)

في هذا الحوار القصير الذي يتألف من ثلاثة أبيات . ومصراع